المرحلة السادسة: ١٢٠٠ ـ ٧٥٠
الموجات الشمالية والموجات السامية.
غزو «شعوب البحر والشمال».
تغييرات عرقية ـ لغوية وتجزئة سياسية

حوالي العام ١٢٠٠، تغيرت القاعدة الإثنية ـ اللغوية القديمة في عالم الشرق الأدنى تغيراً ملحوظاً. وإذ بعالم جديد خليط وقد ولد من غليان عرقي واسع عقب غزو «شعوب البحر والشمال» يخلف الفسيفساء القديمة التي كانت قائمة في الأزمنة السابقة.

إن الشعوب الصغيرة في الممر السوري ـ الفلسطيني، الجدد أو المتجددين، وقد تحرروا من وصاية القوى الكبرى التي ضعفت، وأصبحوا موقتاً أسياد مصائرهم، دخلوا على مسرح التاريخ الكبير. فتابعوا، عندما إنتشوا بحريتهم المستعادة، سياسة سلف كل منهم التقليدية، وتوسعوا فيها.

إنطلق الفينيقيون نحو البحار واكتشفوا الغرب الأقصى وأسسوا أول أمبراطورية بحرية وإستعمارية. أما في البر فعصفت حمى الهيمنة على الآراميين والإسرائيليين والفلسطينيين والحثّيين الجدد ففرقوا في صراعات عقيمة بهدف إنشاء امبراطورية سورية ـ كبرى.

وحوالي العام ٧٤٠ أنهت أشور إستعداداتها، فنزلت من هضابها الشمالية وانقضت على فرائسها المنقسمة وابتلعتها الواحدة تلو الأخرى.

A. غزو «شعوب البحر والشمال» وردود الفعل في الشرق الأدنى.

I. غزو «شعوب البحر والشمال»

حوالي العام ١٢٠٠ كانت ثلاثة عوالم متحضرة تنتمي إلى المنطقة المتوسطية، تحتل مسرح التاريخ وهي: الشرق المتوسطي القديم أو السامي ـ الحامي وعالمان هندو ـ أوروبيان حديثا الظهور، هما الشرق الأدنى الآسيوي المتمثل بالحثيين والعالم الإيجي المتمثل بالآخيين أو اليونانيين ـ الأولين وهم خلف الكريتيين.

وفي حين كان الشرقان من العام ١٤٠٠ إلى العام ١٢٠٠ يتطوران جنباً إلى جنب، تارة بالقتال فيما بينهما وطوراً في سلم مترجرج، كان العالم الآخي ـ الإيجي أو الميسيني وهو العالم الهلليني المقبل يوسّع مدى نشاطه التجاري وسيادته البحرية.

بيد أنه من هذا العالم الأخير بالذات سوف تنطلق حوالي العام ١٢٠٠، أي قبل تسعة قرون من التوسع اليوناني المقدوني الذي شرع به الإسكندر الكبير، شرارة هللينية أولية وبلقانية، وهي التي ستشعل حرائق في العوالم المتحضرة الثلاثة وتدمرها الواحد تلو الآخر. إنه الغزو الشهير «لشعوب البحر والشمال» وهم برابرة شماليون قاموا حوالي العام ١٢٠٠ بإجتياح العالم المتوسطي ودك حضاراته ودوله وتغيير صورته العرقية واللغوية والسياسية وسيتركونه ولقرون عديدة تالية متفككاً ومجزأ.

١ ـ الأمبراطورية الحثية تزعزعها طلائع الموجة

إن المرحلة التي تلت عقد المعاهدة ـ المصرية الحثية لعام ١٢٧٨ كانت بالنسبة إلى مصر عهداً من السلام والازدهار. فرعمسيس الثاني الذي عاش طيلة ٤٦ عاماً إثر هذه المعاهدة المعقودة مع الشمال تمكن من تكريس نفسه لأعمال سلام وعمران.

وأن تألق ملكه والأسطورة المقرونة باسمه هما أساس شهرته كفاتح، التي نسبها إليه اليونان تحت إسم سيزوستريس. بيد أنه وعلى غرار كل الملوك الذين يظلون على العرش طويلاً فإن شيخوخته كانت مظللة بالغيوم المنذرة بالعواصف التي بدأت بالظهور في سماء الشمال.

ففي آسيا الصغرى بالفعل، وبعد نحو عشرين عاماً من توقيع المعاهدة مع مصر بدأت الأمبراطورية الحثية مرحلة جديدة من التردي. فسلالة بوغازكوي الحاكمة بدءاً من العام ١٢٦٠ وقعت في مرحلة إنحطاط طويلة حيث أن سلطة ملوكها ضعفت، في حين كانت المناطق التي استعمروها تتحرر منهم.

إن ذلك التردي الحثي يعود إلى الموجة الشمالية الجديدة التي سبق أن رأينا طلائعها في ليبيا وسورية. إذ ومنذ العام ١٣١٧ قام آريون ـ آخيون بإنزال بحري في ليبيا وهاجموا مصر من الغرب حيث تصدى لهم سيتي الأول. وفي العام ١٢٩٤ كانت عناصر أخرى من هذه الموجة المقبلة تحارب كمرتزقة في صفوف الحثيين على أبواب قادش في سورية الشمالية. وبعدما تحطمت هذه الموجة بفعل إنتصار رعمسيس الثاني فإنها تضخمت من بعد بفعل موجات مهاجرة جديدة ومستمرة وراحت تعمل على زعزعة نظام الشرق الأدنى الأسيوي.

٢ ـ الموجة الشمالية الكبرى في إيجه وآسيا الصغرى

إثر العام ١٢٤٠ إنفجرت سدود الشمال التي كانت تغذي هذه السيول البشرية دافعة إياها من جديد بإتجاه الجنوب. إن هجرة شاملة للحشود الشمالية القادمة من البلقان والسهول الروسية المجاورة للبحر الأسود بدأت تتحرك. فالدوريون، وهم الأسرة الإغريقية الثانية، نزلوا في البيلوبونيز ومنه إنتشروا في جزر السيكلاد وكريت. كما أن قبائل قادمة من تراقيا دخلت عن طريق الدردنيل إلى الأناضول. وأما آخيو بمفيلية (آسيا الصغرى) أخوة آخي اليونان، وقد طردوا من جانب القادمين الجدد، فقد إنتقلوا إلى مناطق أخرى حيث طردوا سكانها. ووصل هؤلاء وأولئك إلى الحدود الغربية لدلتا النيل (ليبيا) وحدود بلاد الحثيين: وعندما وجد المصريون والحثيون أنفسهم عاجزين عن صدّهم، تقوقعوا في جمود حذر.

إن هذا السيل الذي لا يمكن أن يقاوم سيتدفق عما قريب على الشرق المتوسطي حيث سيفتك فتكاً فظيعاً. وكان هؤلاء المجتاحون يصلون جماعات من البر

أو البحر مستقدمين معهم نساءهم وأولادهم وأموالهم. وما أن تستقر تلك المجموعات في مكان حتى تكره على مغادرته بعد أن تطردها جماعات أخرى نحو الجنوب لتحل محلها. ولو إنضمت مصر إلى الحثيين لصد هؤلاء المهاجرين لكانت سورية نجت من الخطر. لكن رعمسيس الثاني، وقد غدا في الثمانين من عمره، لم يكن يتمتع بالقوة اللازمة ليعمل على رد هذا الغزو الجديد والرهيب.

٣ ـ الليبيون والآخيون يهاجمون مصر من الغرب

وكما حصل العام ١٣١٧ فإن مجموعات من هذه الموجة قامت بإنزال بحري في ليبيا حوالي العام ١٢٢٧ وحاولت التسلل إلى مصر. «وكانت ليبيا بلداً فقيراً كان في الماضي يكاد لا يكفي إطعام سكانه الأصليين. ونتصور كيف أن وصول هذه الزمر من المهاجرين قد خلق في ذلك البلد وضعاً في غاية الصعوبة ونفهم بسهولة أن المجتاحين سعوا للدخول إلى مصر البلد الغني. وكان قد سبق لهم مرتين في عصر كان عددهم فيه أقل أن حاولوا عبثاً»[1].

إن أهم المجموعات التي حطت في ليبيا كانت الليبو، وآخيين من اليونان وآسيا الصغرى وهم شماليون ذوو بشرة بيضاء وشعر أشقر وعيون زرقاء. ومن إسم ليبو جاء إسم ليبيا الحالي وقد أطلقه اليونان على تلك المنطقة الأفريقية.

إن توسع الآخيين هذا أو اليونانيين الأولين في آسيا الصغرى والشرق المتوسطي هو صورة مسبقة عن توسع اليونان التقليديين الذين سيظهرون في الألف الأول. ومع الآخيين، تلك الأسرة اليونانية الأولى «فإن أوروبي العصور القديمة التقليدية أخذوا مكاناً لهم في تاريخ الشرق» (موريه).

وبعدما دخلوا الدلتا وصل الليبيون، الشماليون منهم والسكان الأصليون حتى ضواحي ممفيس. وقد ردهم الفرعون مرنفتاح (١٢٢٧) وهزمهم، فتركوا وراءهم ٩٠٠٠ أسير من رجال ونساء وغنائم كبيرة. وقد كان معهم كجنود مرتزقة أو حليفة رجال من هؤلاء الشعوب من آسيا الصغرى الذين سبق أن عرفناهم في خدمة الحثيين في الحرب الكبرى ضد رعمسيس الثاني العام ١٢٩٤: من ليبيين وسردين وكيليكيين وآخيين إلخ...

1 Drioton et Vandier, *op. cit.*, p. 415.

٤ ـ إضطرابات في فلسطين وسورية.

إن محاولة مشابهة جرت في مقاطعات مصر الشرقية تم أيضاً صدّها في العصر نفسه. وفي سياق الوثائق المواكبة لذلك الحدث، نشيد نصر مرنفتاح مسجلاً على الجهة الخلفية من نصب كبير في الكرنك والذي يخلص إلى إعلان أسماء كل أعداء مصر. «إن الأمراء الأجانب خرّوا أرضاً صارخين: السلام!... تيهينو (ليبيا) إكتسحت، بلاد خطي (الحثيين) بقيت مسالمة. كنعان وقعت في الأسر. أشقلون نهبت، جيزير فرضت الضريبة عليها، يانوعام تبخرت، إسرائيل حزينة ولم يعد لها ذرية. سورية (خارو) هي كأرملة لمصر... وللمرة الأولى يظهر في نص مؤرخ (١٢٢٧) إسم إسرائيل»[٢].

إن التفاؤ ل الذي أشاعه نشيد النصر على لسان مرنفتاح لم يكن في واقع الأمر إلا مغالاة صادرة عن الديوان الملكي. وبعد هذا الفرعون إجتازت مصر فترة إنعدام أمن وفوضى وغاصت السلالة المالكة في البلبلة. إذ من العام ١٢١٢ إلى العام ١٢٠٠ تعاقب أربعة فراعنة على العرش كان آخرهم مغتصباً، أصله من بلاد خارو (سورية أو كنعان).

«أن يقوم سوري باغتصاب العرش في أزمنة مضطربة، فلقد مرت بنا أمثلة شبيهة لذلك تحت حكم السلالتين الثامنة والثالثة عشرة. لا حاجة هنا للتفكير بعملية غزو للدلتا: إيارسو (المغتصب) ربما كان موظفاً سورياً من مقاطعة مصرية في آسيا، كان قد توصل إلى مناصب هامة في العاصمة الجديدة بير رعمسيس (تانيس). ومعلوم أيضاً أنه وفي ظل الفرعون مرنفتاح كان سامي آخر يدعى بن عظمة قد حمل لقب «المنادي الحربي الأول» ولقب النديم وهي وظائف ثقة تعزو التوراة إلى يوسف بأن كان له مثل هذا التأثير على الفرعون»[٣].

٥ ـ هجوم ليبي جديد يصده رعمسيس الثالث.

إن إنتصار مرنفتاح على الليبيين أعطى إنفراجاً لكي تلتقط مصر أنفاسها. إذ وبينما كان المهاجرون ينتشرون في آسيا الصغرى، وعلى الأرجح بأن هذه الحشود قد إستخدمها آخيو ميسينا في حملتهم ضد طروادة، كانت مصر تعيد تنظيم نفسها تحت

2 Moret, *Hist. de l'Orient*, II, pp. 580, 581.

3 Moret, *Hist. de l'Orient*, II, p. 581, 582.

إدارة رعمسيس الثالث (١٢٠٠ ـ ١١٦٨) الحازمة. فهذا الملك الحازم الذي كان يتوخى مضارعة سلفه السابق الشهير رعمسيس الثاني، ما كان يهتم آنذاك إلا بالدفاع عن وادي النيل وتنظيم الجيش وتجنيد القوات الوطنية والمرتزقة. إنه يستطلع الحدود ويدرب الفرق العسكرية ويكوّن متراساً من السفن على إمتداد الساحل. وكان هجوم جديد لليبيين قد تم صده على الحدود الغربية (١١٩٥) فهزم المهاجمون وإنكفأوا مخلفين وراءهم ١٢,٠٠٠ قتيل وعدداً كبيراً من الجرحى. وفي عداد مرتزقة فرعون كان هناك مجموعات شمالية، كان الفلسطينيون أشهرها.

٦ ـ الدوريون يجتاحون اليونان.

وفي حوالي ذلك العصر، فإن آخيي ميسينا في اليونان، والذين سبق لهم حوالي العام ١٤٠٠ ان دمروا قوة كريت واحتلوا مكانها، تعرضوا هم بدورهم للتدمير. يومها نشأت مدينة ميسينا القوة البحرية وسيدة البحار، وعلى غرار كريت، فقد أهملت ميسينا امر الاهتمام بالقوات البرية. وتابعت توسعها البحري، واصطدم آخيوها بمدينة طروادة على الهليسبونت (الدردنيل)، التي كانت تحرس طريق بحار الشمال.

وقد هاجم هذه المدينة تكتل من المحاربين الآخيين بقيادة آغاممنون، ملك ميسينا. وقام تحالف جمع كل شعوب آسيا الصغرى الغربية للدفاع عن طروادة. وبعد عشر سنوات من الحصار تم تدمير طروادة وضمت أراضيها إلى اليونان الآخية (حوالي ١١٩٠).

إن آخيي ميسينا، وقد أنهكهم هذا الصراع الحاد الطويل، تعرضوا هم بدورهم للهجوم والإجتياح من جانب برابرة شماليين جدد هم الدوريون، الذين يؤلفون الأسرة الإغريقية الثانية. ولم تُجدِ القوات البحرية نفعاً للمسينيين في تلك الحال إذ جاءهم الإجتياح عن طريق البر القاري.

إن هزيمة الآخيين أو اليونان الأولين أنهت الحضارة الآخية وسيادتها على البحار واللتين لم تدوما إلا قرنين تقريباً. «إن هذه الحضارة الهللينية الأولى ألهبت روح الإغريقيين إلى حد أنهم قرروا ضمناً تضخيم مآثر هؤلاء القراصنة الظرفاء (الآخيين)، وإن شاعراً خلاقاً هو هوميروس وبعد مرور قرنين أحيا ذكرى مفاخر اولئك البحارة المقاتلين فجمعها في ملحمتين رائعتين»[4].

4 De Laplante, *op. cit.*, p. 50.

٧ ـ الآخيون في هزيمتهم يفرون بحراً

إن الأسطول الآخي، سيد البحار وقد بقي سليماً غير أنه أصبح بلا وطن، أبحر يبحث عن أراض جديدة يستقر مؤقتاً عليها ويعد لإستعادة العاصمة. وهكذا فإن هذه الأرمادا (أسطول كبير) الهاربة والتي إنضم إليها الآخيون الناجون من المنطقة المحتلة، و«مقاومو» الأمبراطورية وأولئك العائشون في بلاد أجنبية فضلاً عن مجموعة كبيرة من المغامرين من آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه، تحركت بإتجاه البحر المتوسط الشرقي. إن كل هذه الشعوب المتنقلة، والذين نصادف بينهم من جديد زمراً آرية وآسيانية قدموا من آسيا الصغرى وكريت، ممن خدموا كحلفاء ومرتزقة إلى جانب الحثيين والليبيين ضد مصر، هم الذين أطلق عليهم المصريون «شعوب البحر والشمال والجزر».

٨ ـ غزو سورية. زوال الأمبراطورية الحثية.

إن أولئك المهاجرين الشماليين، وهم كتلة بشرية هائلة متنقلة، إجتاحوا سورية الشمالية حيث من الأرجح أن يكونوا وصلوا إليها بحراً. فأقاموا فيها معسكراً مركزياً، وخربوا ديارها ونكبوا سكانها وغطوا كل المنطقة المترامية من البحر المتوسط حتى الفرات. ولقد إنهارت الأمبراطورية الحثية المطوقة والمحتضرة تحت ضرباتهم وغابت عن مسرح التاريخ إلى الأبد. أما أرواد وقبرص فاحتلتا.

٩ ـ مصر المعزولة تنطوي على نفسها.

إن إحتجاب الأمبراطورية الحثية المباغت ترك وادي النيل معزولاً وسط عالم معادٍ. وإن التوازن الشرقي الذي أنشىء بعناء كبير إنهار فجأة، تماماً كما حصل بالأمس إثر زوال أمبراطورية ميتاني. وإذ رأت مصر نفسها محاطة بالأعداء من الشرق والشمال والغرب عمدت إلى الإنطواء على نفسها، في أزمة وطنية إتخذت بالطبع مظهراً دينياً. وإن قطع العلاقات التجارية أثار أزمة إقتصادية حادة حيث إندلعت ثورات في صفوف الشعوب المسخرة. وبعدما عجز فرعون عن ردها إلى الطاعة، طردها خارج حدود بلاده. ويبدو أن المؤرخين يرجحون أن تكون القبائل الإسرائيلية غادرت الدلتا في ذلك العصر.

١٠ ـ إنتصار رعمسيس الثالث (١١٩٢)

وحوالي العام ١١٩٢، وصلت الموجة الشمالية الكبرى عن طريق البحر والطرق البرية اللبنانية ـ الفلسطينية إلى وادي النيل. فنشبت معركة بحرية ضخمة عند مصبات النهر الشرقية دمر خلالها الأسطول الإيجي المهاجم. وأما في البر فقد هزمت جيوش الأمبراطور رعمسيس الثالث المهاجمين شر هزيمة على الحدود المصرية ـ الفلسطينية.

إن اتحاد شعوب البحر والشمال الذي تعرّض للهزيمة تفكك، وراحت عناصره المشتة تتراجع في معظمها نحو جزر إيجه وصقلية وسردينيا وإيطاليا وشواطىء آسيا الصغرى وشمال سورية. وهكذا نجت مصر من الإجتياح. غير أن القوة المصرية التي أرهقتها عملية القتال اليائسة تلك سرعان ما إنهارت إثر النصر. وقد عرف وادي النيل المنهمك في مصاعب داخلية، إثر ذلك، الخراب والتجزئة.

II. المناطق البحرية غداة العام ١٢٠٠

١ ـ تعديلات في الوجه العرقي واللغوي في عالم ذلك العصر.

إن الحقبة التي بدأت غداة غزو شعوب البحر والشمال، تميزت بتعديل عام في الخارطة العرقية، وفي بعض الأماكن في الخارطة اللغوية، كما تميزت في الآن نفسه بتجزئة سياسية لمجموعة عالم الشرق الأدنى والعالم الإيجي.

فلقد كانت العناصر العرقية الدخيلة، والتي بعد هبوب العاصفة إستقرت هنا وهناك في المنطقة،عديدة ومتنوعة. ففي حين بقي جزء من المجتاحين بعد الإخفاق الذي أحبط إندفاعهم في أماكن وجودهم (كالليبيين والفلسطينيين والحثيين الجدد وسواهم من المجموعات المجهولة، فإن شعوباً سامية بدوية أو نصف بدوية، دأبت منذ قرون عدة على التنقل على مشارف البلاد المزروعة، أفادت من الإضطراب العام لتقيم وتستقر في فلسطين وسورية وبلاد ما بين النهرين: إسرائيليون، عبرانيون، آراميون وسواهم من القبائل الأخرى القريبة منهم.

إن تلك العناصر المهاجرة من ساميين أو شماليين، والتي حملتها عاصفة العام ١٢٢٠، لقد امتزجت بالسكان الأصليين حيث انصهرت بهم أو أنها غمرت أولئك السكان الأصليين فسيطرت عليهم فارضة لغتها وهويتها. غير أن هؤلاء وأولئك لن يلبثوا طويلاً حتى يندمجوا وينخرطوا في البيئة المحلية. وإن المزائج المستقرة التي تشكلت بفعل اختلاط هؤلاء المهاجرين مع السكان الأصليين، وقد ورثت كل طبائع الشعوب الأصلية التي استقرت بينهم، سوف تظهر على مسرح العالم التاريخي بحيوية أكبر إنما بنزعات ومطامع الشعوب التي طغت عليها. وهكذا يمكننا القول مع شفارزشيلد بأن

«العنصر الخام لهذا العالم الجديد ليس آدَمَ جديداً، بل الآدم القديم». لكن يمكننا أن نضيف بأنه آدم متجدد إلى حين.

٢ ـ مصر غداة ١٢٠٠ : شماليون ليبيون يستقرون في الدلتا

بعد إندحار شعوب البحر عاد قسم من هذه الجمهرة هم المشوشة إلى ليبيا. ولما وجدوا أنفسهم يختنقون في هذه البلاد القليلة الخصب، العاجزة عن إطعام سكان جدد، قرر أولئك الشماليون المهاجرون الذين إنضمت إليهم مجموعات من السكان الأصليين، برغم هزيمتهم الحديثة «أن يغامروا بحياتهم للأستقرار في مصر». فقام أولئك الليبيون بمهاجمة الدلتا الغربية، لكن رعمسيس الثالث العام ١١٨٩ سحقهم وردهم على أعقابهم. إلا أنه وحسماً لهجماتهم المتكررة وافق على إيواء عدد منهم في الدلتا كمرتزقة ومستوطنين. وبهذا التنازل تمكنت مصر من درء خطر الغزوات القادمة من الغرب. غير أنه وبعد قرن من ذلك (حوالي العام ٩٥٠) سيتوصل هؤلاء المرتزقة إلى فرض أحد زعمائهم على وادي النيل وينصبونه فرعوناً وهو الفرعون المعروف بالمشوشة شيشونك مؤسس السلالة المصرية الثانية والعشرين (٩٥٠ ـ ٧١٥).

٣ ـ ساحل كنعان مملكة فلسطينية

أ ـ الفلسطينيون وبلد منشئهم

إن البولاساتي، وهم رواسب شعوب البحر والشمال الذين جاؤوا من سواحل آسيا الصغرى إثر توقف طويل في كريت، فإنهم استقروا على الساحل الفلسطيني من بلاد كنعان بعدما احتلوا المدن الكنعانية الخمس: غزة وأشقلون وأشدود وغات ـ عكرون والتي جعلوا منها كونفدرالية دول. وكانت تلك الأراضي، التي كان قد احتلها الفينيقيون واستعمروها منذ وصولهم الى البلاد حوالي العام ٢٩٠٠، ضاعت منهم عندئذ.

وأبعد الى الشمال في جوار الكرمل يقوم ميناء دور الذي تحتله قبائل زاكال التي تعيش من التجارة والسلب، والذي سيغدو عرين قراصنة سوف يقومون بفرض الجزيات على التجارة البحرية في موانىء فينيقيا، انطلاقاً منه.

سم البولاساتي الذين أصبحوا الفلسطينيين التاريخيين اشتقت كلمة فلسطيا

التي ستعني هذا الساحل الفلسطيني وكلمة فلسطين التي سوف تشير، في الجغرافية اليونانية التقليدية، الى مجمل بلاد كنعان ساحلاً وداخلاً.

ويمكننا الوقوف على تاريخ الفلسطينيين من التوراة خصوصاً، حيث أنهم باحتلالهم الساحل حالوا دوماً دون إتصال الاسرائيليين بالبحر، وقد كان على اسرائيل أن تحاربهم طوال قرون عديدة.

ب ـ الفلسطينيون شعب متطور ومحارب

لم يكن الفلسطينيون فعلاً برابرة. فهؤلاء الشماليون كانوا قد تمدنوا بفعل اتصالهم بكريت وحضارات آسيا الصغرى. وأما في فلسطين فقد اختلطوا بأهل تلك البلاد وماشوا دينهم مع عبادات الهلال الخصيب، بيد أنهم بحكم امتلاكهم لجيوش حقيقية وعربات وتنظيم سياسي فسيكونون العدو الأخطر في وجه إسرائيل.

«إننا نتميزهم من النظرة الأولى في الصور الجدرانية المصرية. فهم منتصبو القامة، أنفهم مستقيم وفي مستوى جبهتهم، وبشرتهم فاتحة اللون (في حين أن الساميين يتميزون بلون قرميدي)... وكانت أسلحتهم عديدة منها درع مستدير الشكل وسيف طويل وخنجران يطعنان بهما باليدين معاً. إنه عتاد غوليات»[5].

٤ ـ الأراضي الفينيقية تتضاءل كثيراً. كنعانيو فلسطين يلجأون الى لبنان.

كانت فينيقيا غداة العام ١٢٠٠ في حالة يُرثى لها. فأراضيها الوطنية تقلصت الى حدود فينيقيا التقليدية، البلد اللبناني الحالي.

وأما المدينة الشمالية الثرية والعتية أوغاريت فقد هدمت تماماً وامحت الى الأبد. والى جنوب الكرمل فان الساحل وجميع الموانىء التي احتلها الفلسطينيون فقد خسرها الكنعانيون ـ الفينيقيون الى الأبد بعدما كانوا يحتلونها منذ هجرتهم من ضفاف البحر الأحمر حوالي العام ٢٩٠٠. أما الكنعانيون المحليون الفارون من وجه الفلسطينيين أو الذين طردهم هؤلاء فقد لجأوا الى أبناء جنسهم في فينيقيا وفلسطين.

وفي فينيقيا نفسها لن تقوم قائمة لصور وصيدون بعدما اجتيحتا، إلا بعد عشرات السنين.

5 Daniel-Rops, *op. cit.*, pp. 152, 153.

وأما فينيقيا التي تقلصت الى ثلث مساحتها الأرضية السابقة تقريباً، والمكتظة بالسكان بفعل توافد كنعانيي السواحل الجنوبية (فلسطيا) والشمالية (أوغاريت) اليها، فستجد الحل لمصاعبها الداخلية بالتوسع الاقتصادي والديموغرافي الى ما وراء البحار وسنرى لاحقاً كيف نجحت بهذا التوسع.

وأما في الداخل الفلسطيني واللبناني فقد كان من أهم نتائج غزو العام ١٢٠٠ الاستقرار المتزامن للاسرائيليين في فلسطين وللآراميين الرحّل في سورية الداخلية وبلاد ما بين النهرين. وسنبين لاحقاً استقرار تلك المجموعات السامية في مختلف المناطق التي اختارتها مخصصين أيضاً دراسة مستقلة عن فينيقيا في ذلك العصر والتي ستلعب بدءاً من العام ١٢٠٠ دوراً رئيسياً.

٥ ـ سورية الشمالية، الممالك الحثية الجديدة. حلب ودمشق، إمارتان ساميتان.

وفي حين سيشكل حثيو آسيا الصغرى الذين انهارت امبراطوريتهم وسيادتهم على يد شعوب البحر اتحاداً كونفدرالياً مع المجتاحين الجدد ولاسيما الفريجيين القادمين من تراقيا، يتولى قيادته الموسخو ويضم الكبادوك وجبال طوروس، فإن عناصر حثية أخرى، نجت من انقراض عرقها، ستشكل في سورية الشمالية كونفدرالية مستقلة لاحقاً.

أ ـ حثيو شمال سورية أو الحثيون الجدد

إن هؤلاء الحثيين في شمال سورية المعروفين بالحثيين الجدد، تمييزاً لهم عن اخوتهم الأناضوليين، هم الحثيون المحليون الذين كانوا يحكمون سورية الشمالية لحساب أبناء عرقهم المقيمين في بوغازكوي. ونحن نعلم أن تلك المنطقة، بما فيها كركميش وحلب وحتى حماه، كانت جزءاً من الأمبراطورية الحثية القديمة. وكان حثيو الأناضول قد انضموا الى حثيي سورية الشمالية هرباً من المجتاحين والتجأوا الى هذا النطاق الحثي القديم الذي أصبح الآن مستقلاً تحت سلطة سلالات من العرق الحثي.

ب ـ تأثير الحثيين الجدد

كانت الأمبراطورية الحثية الجديدة في شمال سورية، والتي تحررت بعد زوال أمبراطورية بوغازكوي، تحتل تقريباً أراضي الدولة الميتانية ـ الحورية القديمة نفسها،

أي نهارينا الواقعة بين العاصي والفرات حتى كيليكيا في الشمال الغربي. إنها عبارة عن كونفدرالية ممالك صغيرة سماها الأشوريون ممالك «خاتو الاثني عشر» والتي يتمتع فيها ملك كركميش (جرابلس) على الفرات بمركز مرموق. وأما مدينة حماه على العاصي فهي جزء من المملكة الحثية الجديدة.

وقد لاح النفوذ الحثي الجديد على الشاطىء المتوسطي وبلغ حتى مدينتي أرواد وسيميرا الفينيقيتين. كما أن عناصر حثية من مستوطنين وتجار ومرتزقة أو لاجئين توغلوا في سورية المجوفة وحتى فلسطين. وعندما استقر الاسرائيليون في كنعان، لم يكن الحثي غريباً عليهم. أوريا مثلاً، والذي خطف الملك داود زوجته بَتْشابع كان، كما هو معلوم، ضابطاً حثياً يعمل في خدمة ملك اسرائيل. فضلا عن ذلك، ففي أيام حكم الملكين داود وسليمان تضاعفت الاتصالات بين الشعبين.

ج ـ حلب ودمشق دولتان ساميتان مستقلتان. سورية العليا فسيفساء عرقية.

أما شرق الدولة الحثية الجديدة، فكانت حلب ودمشق تشكلان إمارتين ساميتين مستقلتين.

وهكذا فإن سورية العليا وحوالي ذلك العصر كانت مقسومة الى منطقتين مستقلتين ومختلفتي الأعراق: الأولى حثية جديدة تضم بشكل خاص كركميش وحماه والثانية سامية وهي مؤلفة من مملكتي حلب ودمشق.

«لكن من الخطأ الاعتقاد بأن هاتين الدولتين كانتا مراكز خالية من أي تأثير غير تأثير العرق الغالب في كل منهما. فسورية الشمالية هي مجموعة من الآسيانيين ومن بينهم حثيون وحوريون ومجموعة من الساميين ومنهم الأموريون والكنعانيون. كما أن الفن عند هاتين المجموعتين لا يختلف، وتبقى الفوارق بين هاتين الدولتين ذات طابع محض سياسي. كانت الكتابة الهيروغليفية هي السائدة في كركميش. وهذه الكتابة المختلفة عن الكتابة المصرية، وإن تكن من الطبيعة نفسها، كانت تستبدل غالباً في المنطقة الحثية بالكتابة المسمارية. وأما في مملكة سامال، زنجرلي اليوم والتي تشكل جزءاً من الكونفدرالية الحثية، فالأبجدية السامية (الفينيقية) كانت متداولة في الكتابات الرسمية. . . . وأما الرابط الحقيقي بين المدن الحثية والمدن السامية فهو كرههم للدولة الأشورية الذي يكفي لتوحيد تلك المدن ضد المجتاح»[6].

6 Contenau, *L'Asie Occidentale ancienne*, pp. 265, 266.

III. المناطق الداخلية غداة ١٢٠٠

١ ـ الاسرائيليون يدخلون «أرض الميعاد»

أ ـ عصر الدخول

بين تسلسل الأحداث التاريخية «الطويل» و«القصير» الذي يختلف علماء المصريات حوله، الفارق هو قرنان أو ثلاثة. وعليه، وحسبما تعتمد الطريقة الأولى أو الثانية من هذا التاريخ، فإن خروج الاسرائيليين أو رحيلهم عن مصر يقع حوالي العام ١٤٠٠ أو ١٢٢٥ ق.م.

إن هذا التاريخ الأخير المسلم به عامة يبدو لنا أنه هو الأرجح. فرعمسيس الثاني (١٢٩٨ ـ ١٢٣٢) قد يكون هو الفرعون الذي اضطهد اسرائيل. فهذا الملك الفاتح والمولع بالعمران الذي كان يصادر الأيدي العاملة في كل مكان قد يكون سخّر الاسرائيليين المقيمين في الدلتا الشرقية لبناء العاصمة المصرية الثالثة أي «مدينة رعمسيس» (تانيس).

ب ـ موسى محرر اسرائيل

إن العرق أو الشعب المختار الذي نكّد عيشه بفعل سياسة قومية مبغضة للغرباء، والرامية الى اخراج كل العناصر الغريبة من مصر، أصبح مضطهداً. لكن يهوه الساهر على شعبه قد أرسل اليه محرراً،بطلاً قومياً جديداً هو موسى الذي انضم الى قافلة آباء العهد القديم في التوراة. فبعد ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف فإن موسى الذي ظهر في ذلك العصر، سوف يؤمن لأبناء شعبه خروجهم من مصر، ويجعل منهم أمة.

وبتحمله الدور الذي عهد به قبلاً الى ابراهيم فقد خرج موسى على رأس شعبه من مصر أيام الفرعون مرنفتاح (١٢٣٢ - ١٢٢٤) وهو إبن رعمسيس الثاني وخليفته. ولما وصل موسى وشعبه الى واحة قادش وهي المدينة المقدسة في النقب، نصبوا خيامهم. وفي ذلك المكان الذي شهد القتال الكبير بين عشيرة ابراهيم والفينيقيين، كان الشعب فيه ما يزال سامياً، حيث نجد الاسماعيليين (العرب المقبلين) وهم سلالة اسماعيل بن ابراهيم من جاريته المصرية هاجر.

ج - يهوه إله اسرائيل

في هذا المكان ظلت أسباط إسرائيل مقيمة على مدى أربعين عاماً. فهنا جمعهم موسى ووحد فيما بينهم وجعل منهم مجموعة قوية متحدة حول فكرة دينية عليا. وفي تلك الصحراء السينائية تجلى يهوه لموسى وصار إله إسرائيل. إذ حتى ذلك التاريخ لم يكن الشعب المختار يعرف إلهاً سوى إيل أو إيلوهيم وهو إسم نكرة كنعاني يعني إلهاً (ومنه كلمة إسر - إيل).وسيكون لله بعدئذ اسم علم، «يهوه» أي الكائن الأسمى.

إن تطوراً مماثلاً سوف يحدد بداية رسالة نبي العرب. فإن محمداً ﷺ سوف يجمع ويوحد القبائل داخل الجزيرة العربية ويؤلف من مجموعها أمة موحدة تلتف هي أيضاً حول فكرة دينية هي فكرة الله. وفضلاً عن ذلك فإن العرب السابقين للاسلام، كما الاسرائيليين ما قبل موسى، كان لهم آلهة عديدة. إن يهوه إسرائيل أو الكائن الأسمى هو نفسه الله تعالى الذي آمن به العرب، أو الإله الواحد.

د - موسى، مشترع وقائد أمة.

كان موسى قائداً للناس ونبياً ملهماً على غرار الرسول العربي محمد ﷺ ومشترعاً أيضاً. فالتوراة أو قانون إسرائيل على ما نراها اليوم هي من وضعه. وإن العديد من النصوص التوراتية الموسوية ذات الصلة «بمبادىء العدالة» شديدة القربى بما جاءت به شرعة حمورابي ومن العادات القديمة في سومر وبابل والقوانين الحثية وتقاليد العدالة القديمة المطبقة في آسيا الأمامية. وفي ردة فعل منه على مئات التماثيل التي كانت تزدحم بها المعابد الفرعونية لجأ موسى ومن بعده محمد ﷺ الى منع تمثيل صورة الجلالة الالهية في تماثيل. وكانوا يقدمون ليهوه بواكير القطعان والأرض. وإن تقديس يوم السبت نشأ منذ بداية عهد الخروج. وكان أعظم الأعياد هو عيد الفصح وهو عيد تذكار الأزمنة التي أخرج فيها يهوه شعبه إسرائيل من مصر. ولكن أهم تجديد جاء به موسى، ولعله مأخوذ من مصر، كان إنشاء جماعة الكهان أو

الاكليروس. فالألبسة الفخمة التي كان الكهان يلبسونها في الاحتفالات الدينية تشهد على طابعهم المقدس: كالجبّة الحمراء والتاج والقلنسوة ووضع الصدري العريض المرصع بالأحجار الكريمة على الصدر. وأما دورهم الأساسي فكان يتركز على استفسار يهوه حول إرادته. وقد تم تخصيص قبيلة معينة للقيام بهذه الفروض الكهنوتية هي قبيلة لاوي (ليفي) التي ينتمي اليها موسى. وقد كان أخوه هارون أول رئيس لها.

لقد بات شعب يهوه المختار مذّاك أمة وأصبحت له شخصيته المميزة عن سائر المجموعات السامية. وسيقوده موسى الآن نحو الأرض التي وُعد بها ابراهيم واسحق ويعقوب، لكن موسى توفي قبل ان يطأ تلك الأرض.

هـ - إسرائيل على أبواب كنعان

ولما وصل الاسرائيليون الى أبواب كنعان نصبوا خيامهم وسط أبناء شعبهم الخابيرو - العبرانيين الذين ظلوا على بداوتهم، وهم من غير ذرية يعقوب، ولم يهاجروا الى مصر. وظل الاسرائيليون يعيشون في منأى عن أنسبائهم هؤلاء في تلك العزلة التي طبعت تاريخهم.

في فلسطين نفسها التقى الشعب المختار الكنعانيين والأموريين المحليين كما لاقى على الشاطىء الفلسطيني الشماليين الذين استقروا حديثاً هناك. ومن الموجة الأرامية التي استقرت في الشمال خرج فرعان تقدما حتى شرق الأردن هما: الأمونيون والمؤآبيون وهما قريبان من بعضهما بعضاً لكنهما على عداء دائم. وأما في جنوب كنعان، في النقب فقد كان هناك الأدوميون وهم بدو شرسون، والأماليكيون وهم غزاة محترفون، وكانوا يشنون الغارات الدامية نحو الشمال. وقد كان على اسرائيل أن تواجه كل أخصامها هؤلاء في سعيها للسيطرة التدريجية على أرض الميعاد. إنما العدو الأشد والأدهى كان الفلسطيني الذي يمتلك جيوشاً حقيقية. ولذا كان اكتساح الأرض الموعودة أمراً صعباً.

و - يشوع والإكتساح

إن يشوع الذي عينه موسى ليخلفه في قيادة شعبه إصطدم «بالملوك الأموريين غرب نهر الأردن ثم بالملوك الكنعانيين قرب البحر» وأخيراً بفلسطيني الشاطىء. وتلك المجموعات الثلاث تحالفت كي تطرد الاسرائيليين، غير أن الإيمان بوجود العناية الإلهية أعطى شعب

إسرائيل الشجاعة ورفع معنوياته. حيث أن بضعة هجومات عسكرية خاطفة مكّنت يشوع من الاستيلاء على الأراضي الواقعة بين جبل حرمون شمالاً والصحراء جنوباً. وهكذا تم فتح جزء من الأرض الموعودة وأمّا في عمق تلك البلاد فبقي الكنعانيون في مواقعهم. لكن الوعد الالهي بدأ يشق طريقه. وقام يشوع بتوزيع الأراضي المحتلة على مختلف أسباط إسرائيل. فأعطيت المناطق الجبلية ليهوذا من «سبط يوسف» والتي أقام قسم منها في شرق الأردن.

٢ ـ الآراميون الرحّل يستقرون في بلاد ما بين النهرين وسورية الداخلية وشرق الأردن.

إن الآراميين الرحّل المتوقفين على الفرات والذين كانوا دائمي الترحال منذ العام ٢٠٠٠ على مساحة تمتد من بابل حتى سيناء وهم يتلقون باستمرار من الصحراء العناصر البشرية الجديدة ويتربصون بتوق كبير بالأراضي المزروعة التي يحلمون بالاستقرار فيها، أفادوا من الاضطراب العام الذي أصاب المنطقة بعد غزو شعوب البحر والشمال ليتسللوا الى بلدان الهلال الخصيب. وفي حين كان أبناء جنسهم الاسرائيليون قد حسموا خيارهم وألقوا رحلهم في الأرض الموعودة لابراهيم ونسله وشرعوا في احتلالها، فإن الآراميين انقسموا الى قسمين، أحدهما استقر في سورية في حين توجه الآخر وهم آراميو الشرق للاستقرار على طول ضفاف الفرات وبخاصة في بلاد ما بين النهرين السفلى.

أ ـ الآراميون في سورية، جعل المنطقة آرامية

إن آراميي الغرب استقروا في أمورو (سورية العليا ودمشق) وسط السكان الأموريين الأصليين الذين سادوا عليهم وانتهوا لاحقاً بضمهم. فصارت بلاد أمورو بعدها بالنسبة الى الإسرائيليين، بلاد آرام وبالنسبة الى اليونان بلاد سورية. وأما اللغة الآرامية، التي سوف تحل عما قريب محل اللغة البابلية في بابل واللغة الأمورية في سورية، فستصبح بعد قرون عدة، اللغة الدولية ولغة التجارة وستنتهي بالحلول محل اللغات السامية كافة في الهلال الخصيب، بما فيها اللغتين الفينيقية والعبرانية. وسيمهد هذا التوحيد للغات السامية الطريق أمام التوحيد الذي سوف تحققه بعد أكثر من ألف سنة اللغة العربية التي ستأخذ مكان الآرامية وسائر اللغات السامية ـ الحامية من العراق وحتى المغرب.

في سورية، أسس الآراميون ممالك صغيرة غير أنها قوية، وهي التي ستلعب دوراً هاماً في تاريخ الشعوب المضطرب وبخاصة الاسرائيليين.

في سورية العليا فقد اصطدم الآراميون في الشمال بمقاومة الحثيين الجدد او «ملوك خطي الاثني عشر» أسياد منطقة نهارينا بين العاصي ودجلة، ومدن كركميش وحلب وحماه. وكانت حلب السباقة في الانتقال الى سلطة الآراميين حيث كوّنت مملكة بيت أغوشي. وأما أبعد الى الشمال فإن بلاد ياعودي المسماة أيضاً سامال بالآرامية عند سفح جبل أمانوس ستشكل أيضاً مملكة آرامية عاصمتها مدينة زنجرلي. وقبل العام ١٠٠٠ ستنتقل حماه أيضاً الى سلطة الآراميين. وأما في سورية الوسطى وشرق الأردن وفلسطين فلم يلقَ الآراميون سوى مقاومة ضئيلة. وحدها فينيقيا أفلتت من قبضتهم. وأما في فلسطين فالاسرائيليون الذين اصطدموا بهم تصدوا لهم بمقاومة ظافرة.

«ومهما يكن فمن الثابت أنه وبدءاً من القرن الحادي عشر كان الآراميون قد استقروا في وادي العاصي الشمالي ووادي الليطاني وكل جنوب سورية. وفي عصر شاوّل (حوالي ١٠٤٤ ـ ١٠٢٩) وداوّد (حوالي ١٠٢٩ ـ ٩٧٤) يعرفنا العهد القديم بأسماء الامارات الآرامية الموجودة في هذه المناطق وهي آرام ـ صوبا، وآرام ـ بيت ريحوب وآرام معكه وجشور ودمشق. وكانت صوبا تقع في البقاع (سورية المجوفة) في حين أن بيت ريحوب كانت تقع أبعد منها جنوباً في منطقة مجرى نهر الليطاني الأوسط. وأما معكه فكانت تقع ربما في منطقة دان (تل القاضي) والجولانية (في فلسطين). وأما جشور فمن المحتمل أنها كانت تقع أبعد الى الشرق بين اليرموك ومنطقة دمشق. . . . وما يبدو مؤكداً أن الآراميين لم تجابههم في جنوب سورية سوى مقاومة ضعيفة: فسكانها المؤلفون أساساً من الأموريين والكنعانيين كانوا مفككين ومستسلمين لفلتان النظام والفوضى منذ عهد العمارنة. وعلى عكس ذلك فمدن الساحل الفينيقي كبيبلوس وصيدون وصور، الأفضل تنظيماً ودفاعاً، نجحت في رد المجتاحين ولم يفلح هؤلاء في الوصول الى البحر. وأما في فلسطين فقد اصطدموا هناك بمملكة إسرائيل الفتية»[٧].

7 Dupont-Sommer, *Les Araméens*, pp. 25, 26.

ب ـ دمشق مركز رئيسي لآراميي سورية

كان ملك صوبا في البقاع أقوى الملوك الآراميين الصغار في سورية. لكن داود ملك إسرائيل دحر قوّته وأقام بعدها حاميات إسرائيلية في دمشق. وأما رزون وهو ضابط تابع لملك صوبا فتخلّى عن هذا الأخير وولّى ملتحقاً بالمقاومة الآرامية ضد المحتلّين الإسرائيليين. وعلى غرار الملك عازير وفي الماضي عاود رزون الإستيلاء على دمشق وأعلن نفسه ملكاً عليها وأصبح العدو الالد لإسرائيل. «ومنذ ذلك التاريخ ستكون مملكة دمشق، لا مملكة صوبا، هي المتحكّمة بالعالم الآرامي في سورية وهي التي ستقود النضال ضد العبرانيين، وإن ملك دمشق هو الذي تسمّيه النصوص التوراتية فضلاً عن النقوش الآرامية القديمة «ملك آرام» وحسب»[8].

ج ـ الآراميون في بلاد ما بين النهرين ومعاركهم مع الأشوريين

كان الأشوريون، الطامعون بسورية الشمالية وبالحصول على منفذ على البحر، قد وجدوا أنفسهم بلا منافس يحول دون تنفيذ مراميهم إثر زوال دولة الحثّيين، لذا كانوا لا يحبّذون إقامة هذه الشعوب الآرامية ذات الطباع المقاتلة، والتي تتلقّى الإمداد البشري باستمرار من الصحراء، تستقرّ على حدودهم الجنوبية، وتتنازع معهم على الفريسة نفسها: أمورو (سورية الشمالية).

ومنذ العام ١١١٢ هزم تغلت فلاصر الأول ملك أشور الآراميين واحتلّ ستًّا من مدنهم ولاحقهم حتى الصحراء. لكن هذه الانتصارات كانت ظرفية حيث أن هذا الملك نفسه اضطرّ لمحاربة الآراميين من جديد. واستدعت تلك الحرب أربعاً وعشرين حملة كان الملك الأشوري خلالها مطارداً باستمرار هؤلاء الآراميين من الفرات إلى تدمر في قلب الصحراء من حيث تصلهم الإمدادات. وإن النصوص الأشورية، التي ظلّت حتى العام ٩٠٠ تصفهم «بأناس السهوب» أو الأخلامو أو الأخلامو ـ الآراميين، باتت بعدها تسمّيهم الآراميين وحسب.

إن تصرّف الأشوريين الحازم ضد الآراميين لم ينجح في منع دخولهم إلى البلاد إلا لفترة قصيرة. ومنذ العام ١٠٩٠ كان الآراميون قد استقرّوا بثبات على ضفتي الفرات في منطقة المنعطف الكبير في مجرى الفرات، حيث أسسوا أول مملكة آرامية مملكة بيت عاديني والممتدة شرقاً حتى بليخ. وإن إنشاء هذه الدولة تبعه بعد فترة

8 Dupont-Sommer, *op. cit.*, p. 29.

قصيرة تكوين دول عديدة أخرى في وادي بليخ ووادي الخابور وعلى ضفاف الفرات ودجلة وفي جنوب جبل سنجار.

وتلك الممالك الصغيرة كانت غالباً مستقلّة وأحياناً متنافسة. وإن أشور التي كانوا يهدّدونها في الجنوب ستعرف كيف تفيد من انقساماتهم ذات يوم لترضخهم جميعاً لسلطتها.

وفي بلاد ما بين النهرين الوسطى فالموجة الآرامية لم تكن لتتوقّف عن الاندفاع حتى الضفاف الشرقية لدجلة.

وأما بلاد ما بين النهرين السفلى جنوب بابل وحتى الخليج العربي فقد كانت مسرح مجموعة قوية من القبائل البدوية التي تنتسب إلى الآراميين،هي قبائل كالدو أو الكلدانيين التاريخيين المقبلين الذين سوف يكوّنون حوالي العام ٨٥٠ ست ممالك صغيرة تتمتّع باستقلال ذاتي، ثم يؤسسون العام ٦٠٥ الأمبراطورية الكلدانية أو البابلية الجديدة ويعطون اسمهم كلدة لبلاد سومر القديمة.

٣ ـ الخاتمة

وهكذا فإن موجة التوسّع السامية الرابعة أي موجة الخابيرو ـ العبرانيين والآخلامو ـ الآراميين والتي كانت في حالة توفز وتحرّك في الصحراء وعلى الحدود منذ هجرة ابراهيم حوالي العام ٢٠٠٠، وجدت نفسها مستقرّة بعد سبعة أو ثمانية قرون من الترحال. إن هذه الموجة العبرانية والارامية التي أعاقت محاولات استقرارها موجات الغزو الشمالية المتفرّقة التي غمرت الهلال الخصيب خلال الألف الثاني ومقاومة الشعوب الحضرية الأفضل تسلّحاً للدفاع عن نفسها، انتهى بها المطاف إلى تحقيق حلمها بفضل إعصار العام ١٢٠٠ الشمالي الذي نجح في زعزعة العالم الشرقي.

لكن الأنباط الأولين وكذلك الغساسنة واللخميين الذين انحدروا لاحقاً من الهضبة العربية كانوا أقلّ حظاً من الآراميين إذ اصطدموا بحدود وأمبراطوريات صلبة. ولذا فإن موجاتهم المتعثّرة عند حدود الهلال الخصيب الصحراوية ستتوقّف في منتصف الطريق لتستقر جزئياً، بعضها في شرق الأردن (الأنباط) والآخر عند أبواب دمشق (الغساسنة) والبعض الأخير في بابل (اللخميون). وقد ظلّت تلك الشعوب، وبخاصة القبائل الغسانية واللخمية كأقرانها الآراميين على بداوتها المتنقّلة طوال قرون

عديدة في الصحراء قبل أن تتمكّن من الاستقرار داخل الهلال الخصيب محقّقة حلمها لصالح غزو عرب الإسلام.

فهي باتحادها مع عرب الفتح الإسلامي ضاعفت عددهم ودخلت وإياهم إلى سورية وبلاد ما بين النهرين تماماً كما فعلت في الماضي قبائل نسيبة لها أي الإسرائيليون والكنعانيون وقبائل عربية بدوية أخرى ممن تسلّلوا إلى دلتا النيل مع جمهرة من الغوغاء المجتاحين الهكسوس.

وإذا كان عرب الإسلام الذين تدفّقوا خلال القرن السابع بعد الميلاد، استولوا بسهولة ومنذ هجماتهم الأولى على الشرق الحضري فلأنهم كانوا أكثر حظاً من الأنباط الأولين والغساسنة واللخميين. فقد وجدوا بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر وحتى إيران أيضاً في حالة تفكّك وضعف كالتي عرفها الآراميون بعد العام ١٢٠٠. ولذا فإن موجة الفتح العربي لعام ٦٤٠ب.م. انتشرت على النحو الذي انتشر به الآراميون العام ١٢٠٠ قبل الميلاد.

فالأحداث السياسية والعسكرية التي جرت حوالي العام ١٢٠٠، وغزوات شعوب البحر التي زعزعت وفكّكت العالم الشرقي، يبدو أنها في الوقت نفسه أفرغت ولبضعة قرون خزانات الشماليين الأولين. ومن جهة أخرى فإن الموجة الآرامية والعبرانية والتي بعد قرون عديدة من حياة البداوة المتنقّلة جاءت لتستقرّ مغطّية الهلال الخصيب يبدو أنها بدورها أفرغت الصحراء السورية ـ العربية من سكانها وذلك لبضعة قرون.

لذا فإن الفترة التي ستلي العام ١٢٠٠ ستكون مرحلة هدوء وسلم نسبي للعالم الشرقي سوف يفسح لسكان هذه المنطقة الواسعة، الانصراف لبعث الحياة الاقتصادية وإعمار الدولة المدمّرة وإعداد عالم شرقي جديد. إن هذا العالم المنتعش بفعل تزاوج الأعراق والذي يتهيّأ بين العام ١٢٠٠ والعام ١٠٠٠ سوف يظهر على عتبة الألف الأول بالطباع الأساسية نفسها التي كان يتميّز بها شرق الألفين الثاني والثالث، وهذا برغم التغييرات السطحية التي ستبدو على مظهره المتبدّل جزئياً من الناحية العرقية واللغوية. إن أراميي الشرق سيثابرون على السياسة والتقاليد الدهرية التي كانت تميّز المابينهريين وإن أراميي الغرب (سوريي المستقبل) سيكونون الورثة

الجديرين بالأموريين كما أن الفلسطينيين والإسرائيليين سيتابعون تقليد السكان الكنعانيين الأصليين. في حين أن ملوك خطي الإثني عشر في سورية الشمالية والأشوريين في بلاد ما بين النهرين الشمالية سيسيرون في ميدان السياسة أو الحرب على خطى أسلافهم الحثيين القدامى والميتانيين ـ الحوريين.